ويقـــال إن الشـــيخ إبراهيم الفريد الثاني كان قد استخار قبل أن يعطـــي المجموعـــة الشـــعرية لجـــده ويفوضها إلى البابا(نانك) فظهر له بالاســـتخارة أن الشـــعر لن يضيع على يديه وسيصل إلى الأجيال القادمة بأمـــان وضـــمان ودون أي عيب ونقصان. ولكننا لانعلم شيئا عن مصير الأصـــل المكتوب بالخط الفارسي لأن الكتاب السيخي المقدس كان ولا يزال يكتب بخط يسمي خطا" غور موخيا" وهو خط السيخ ويشبه خط اللغة الهندية لغة الهنادكة! وذلك الخط السيخي لا يوجد فيه أصوات عربية ومن ثم قد حدث تصحيف وتحريف في شعر الشيخ فريد الدين مسعود ولا يـــزال في حاجـــة إلى من يعرف الخطين العربي والسيخي فيقوم بتحقيق الديوان. وشعر الشيخ فريد هذا الذي يضمه كتاب السيخ المقدس يحتوي عـــلى 112بيـــتا ويسمي كل بيت "اشلوك" بالبنجابية القديمة التي كان يتحدث بها الشيخ فريد وهي كلمة سنسكريتية ومعناها الكلام الموزون أو البيت الشعري، وقد عولنا في تعريبنا للديوان على ثلاث طبعات له:

(1) طبعة الأستاذ مقبول الهي

(2) طبعة الدكتور نذير أحمد

(3) طبعة الأستاذ محمد آصف خان.

وهذا الشعر البنجابي للشيخ فريد الدين مسعود هو شعر بنجابي، ويعبر عـــن عواطـــف الإنسان البنجابي ومشاعره تعبيرا صادقا كما أنه يعبر عن عواطـــف كـــل انسان ومشاعره تعبيرا صحيحا، فالواقع أن الشيخ ليمثل الـــثقافة البنجابية تمثيلا بمعني الكلمة، لأن الإنسان البنجابي بالأمس واليوم

إنسان رحب الصدر واسع القلب حلو اللسان سليم الذوق صادق اللهجة ليس في حديثه العام وكلامه العادي فحسب بل فيما يفعله عمليا ويقوم به من الترحيب الحار لكل مسافر زائر وضيف طارق ويؤثر غيره على نفسه في كل ما لديه ويملكه أو يقدر عليه من القيام بالخدمة وتقديم الضيافة والحفاوة بضيفه من أعماق صدره وبقلبه الصادق الذي يتدفق حبا وإخلاصا فكأن الشيخ فريد الدين مسعود، رحمه الله، في شعره وفكره يجمع بين ما ورثه من التقاليد الثقافية والحضارية البنجابية منذ القدم وبين ماجاء له بحكم إيمانه بالله وحده وعقيدته الإسلامية السمحاء التي تقوم على التوحيد والوحدة البشرية والمساواة الشاملة والأخوة الصادقة من مبادئ دين الله الحنيف ومن التقاليد الثقافية العربية الفاضلة التي ورثتها رسالة التوحيد والأخوة والمساواة من نوح وإبراهيم وإسماعيل عليهم السلام إلى محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم، فشعر فريد هذا، إذن ، إنما هو شعر يعبر تعبيرا صحيحا عن تعاليم الإسلام والثقافة العربية القديمة كما أنه يعبر تعبيرا صادقا عن الثقافة البنجابية المتدفقة حبا وإخلاصا للبشرية كلها دون تفرقة عنصرية أو تمييز عقائدي، إذ هي ثقافة تتدفق بالمشاعر الإنسانية الجملية كما تجري وتتدفق الأنهار الخمسة التي تسقي وتروي الأراضي القاحلة الميتة فتحييها فتحولها إلى حقول خصبة خضراء كثيرة المنافع والخيرات في إقليم بنجاب!

ومهما كان أصل الشيخ فريد أو أرومته التي كان ينتمي إليها، أعربيا كان أصله أم عجميا، فذلك مما لا يهم بهذه المناسبة، وإنما المهم هو

أنه قال الشعر باللغة البنجابية التي تعلمها من أمه والتي كان يتحدث بها هو وكل من كان يعاصره من الناس، المسلمين وغيرهم في المنطقة ، الذين عاش بينهم فريد فتأثر بهم و أثر فيهم، وهذا الشعر البنجابي الذي قاله الشيخ في تلك اللغة البنجابية المغربية أو اللهجة الملتانية ، يمتاز بأسلوبه الخاص، فرغم أنه كان من أسرة قد تحدرت من هراة في أفغانستان إلى ملتان في إقليم بنجاب و لم يكن قد مضى وقت طويل على نزوح الأسرة إلى الهند و مغادرتها بلاد اللغتين العربية و الفارسية، إلا أن شعره البنجابي القح يحمل طابعا محليا خاصا، وقلما تجد فيه أثرا لغويا أو أدبيا من العربية أو الفارسية غير الفكر الإسلامي العريق، إنما هو شعر بنجابي قح بمعنى الكلمة ، وذلك إن دل على شئ فإنما يدل على أن الشيخ ، رحمه الله ، قد كان من هؤلاء الصوفية المسلمين الأبرار الذين لم يكن يهمهم غير نشر الفكر الديني الإسلامي بين الناس و دعوتهم إليه في لغتهم الأصيلة المتداولة فيما بينهم لكي يتمكنوا من فهم الإسلام فهما مباشرا جيدا صحيحا فيهتدي إليه من شاء أو من أراد به الله خيرا فيهديه إلى دينه، فذلك قد كان دأب الصوفية المسلمين وهمهم في شبه القارة، ولقد كان عباد الله هؤلاء يجلسون في مجالسهم العامة و في حلقاتهم المفتوحة فيأتي إليها كل من هب ودب دون تمييز أو تفرقة فيستمعون إلى حديثهم ، الذي كان سهل الفهم قريب المنال شيقا جذابا مرغوبا فيه، فينتفعون به ويستفيدون منه، وكان حديثهم هذا الممتع المفيد يتخلله ذلك الشعر الصوفي الممتع الفعال فيؤثر في نفوسهم و يجذبهم إلى الإسلام فيدخلون في دين الله عزوجل عن

رغبتهم فيه وحبهم له! ومن ثم قد جاء شعر هؤلاء الصوفية الأخيار تعبيرا صـــادقا عـــن المجتمع الذي عاشوا فيه، و تصويرا رائعا صحيحا للبيئة التي أثـــروا فيها كما أنه ، في نفس الوقت ، يعبر عن الفكر الإسلامي ويصور جهـــود الصوفية في دعوة الإسلام و تبليغه إلى الناس في شبه القارة، و أن الجموع المتكاثرة من السكان المسلمين في هذه البلاد قد اعتنقت الإسلام و دخلـــت فيه نتيجة لجهود هؤلاء الصوفية الدعاة وهم أصحاب الفضل في ذلك جزاهم الله خيرا عن المسلمين جميعا!

و أما اللغة أو اللهجة البنجابية ، التي اتخذها الشيخ أداة لشعره و التي كان يتحدث بها في أسرته و أهله و اختارها للتعبير بها، فهي لغة ملتان البنجابـــية أو الـــلهجة الغربية البنجابية عند اللغويين والألسنيين القدماء ، وهـــي التي كانت ولا تزال أداة للتعبير الشفوي ولغة التخاطب عند أهل ملتان و ما إليها من المناطق(وهي اللهجة السرائيكية عند المحدثين اليوم!) وهـــي مـــناطق واسعة وطويلة جدا وتقع على ضفتي نهر السند و تمتد من مـــنابعه في المـــناطق الجبلية الشمالية إلى مصبه في بحر العرب حيث كان الإنســـان في القـــديم يحب أن ينـــزل على سواحل النهر ويبني بها المدن والقـــرى لكي يتمكن من الحصول على الماء للشرب والسفر فيه بالسفن والقـــوارب، والذين نزلوا بهذه المدن والقرى و عمروها وسكنوا بها، قد كـــانوا من أصول شتى و أجناس مختلفة من البشر، وكان آخرهم الفرس والـــيونان ثم العـــرب والأتراك والمغول، وجميعهم قد تحدثوا بتلك اللهجة البنجابـــية ، التي عرفت باللهجة الغربية وتعرف باللهجة السرائكية اليوم،

وقد أثر فيها هؤلاء جميعهم و تأثروا بها خلال القرون الطويلة! فتلك هى اللغـــة أو اللهجة البنجابية التي تعلمها الشيخ من أمه الحنون وتحدث بها و قرض بها الشعر حين استقر أخيرا على ظهر قرية "أجودهن" أو "باك بتن" (أي المـــورد الطاهر) اليوم حيث قضى الشيخ فريد الدين مسعود ما تبقى مـــن عمره و بها مات وبها مدفنه و ضريحه ، وهذه اللهجة البنجابية ، التي قال بها الشيخ شعره هي تمتاز بمفرداتها البنجابية القديمة و يوجد بها القليل من المفردات العربية و الفارسية ، وهي قريبة من اللغة السندية وتشبهها في كثير من الأشياء.

واللغة البنجابية ، بصفتها إحدى اللغات القديمة في شبه القارة، لغة أدبـــية عريقة، وحتى يرى البعض بأنها هي أقدم من اللغة السينسكريتية ، وقد تكون أقدم من اللغة الدراورية التي كانت سائرة متداولة قبل أن يجئ الآريـــون إلى شـــبه القارة، إذ هي لغة الجنس البشرى الدراورى ، وهم السكان الأصليون لبلاد شبه القارة، فالبنجابية ، إذن، قد تكون أقدم لغة نطق بها الإنسان في شبه القارة ، ومن أبرز ميزاتها أنها لغة بسيطة سهلة و تمـــتاز بالأســـاليب البلاغية البسيطة السهلة على عقول العامة والخاصة في نفس الوقت ، إنهم يفهمون ما يلقي بها عليهم من الخطب وما قيل فيها من الشعر دون أية صعوبة و مشقة وعناء ، مهما بلغ الشعر القمة من المحاسن الأدبـــية والإناقات اللغوية والأساليب البلاغية ، وذلك مما يحفل به الشعر الصوفي البنجابي عبر العصور ، وشعر الشيخ فريد الدين مسعود دليل على

تلـــك الدعوى ، وهوخير مثال قلدة الشعراء المتصوفون في عصره وفيما بعده من العصور.

ومـــن المحاســـن الأدبية والإناقات البديعية التي يمتاز بها شعر اللغة البنجابية هي الكثرة المفرطة من الكنايات والاستعارات المتنوعة ومثال ذلك المصـــباح الذي يكني به مرة بالعين و أخرى بالروح في اللغة البنجابية فإن العـــين تضئ و تهدي الطريق كما ينير المصباح البيت فإذا فارقت الروح الجســـد، و قضى عليه بالموت، انطفأت العين كما ينطفئ المصباح فيسود الظلام البيت، ومثال ذلك بيت شعري أو أشلوك لرائد الشعر البنجابي و إمامه الشيخ فريد الدين مسعود الذي يقول:

فـــريدا دوهين ديوي بلديان ملك بيتها آ

كرهـــ ليتا كهت ليتا ديوري كيا بجهـــا

و معناه:"أمـــا رأيت يا فريد! أن الإنسان عند ما كان حيا كان مصباحاه يشـــتعلان ويضـــيئان أي كانت عيناه تلمعان، فجاء ملك الموت فجـــثم على الإنسان الحى ففتح قلعته أي جسده و نهب البيت أو قبض الروح و أطفأ المصباحين أي العينين!! "

فالبيـــت الشعري هذا للشيخ ملئ حافل بالكنايات والاستعارات يفهمها كل بنجابي بمجرد الاستماع إليه ، وتلك هي ميزة اللغة البنجابية الـــتي قد انتقلت إلى آدابها شعرا و نثرا! و في البيت من المعاني والأفكار لا يطلـــع علـــيها إلا من تعلم البنجابية و عرف تقاليدها و أعرافها و أدرك مـــيزاتها الأدبية، فالانتصار النهائى على الجسد أو فتح قلعته إنما هو إنذار

للجـــبابرة العنداء الذين يعتقدون بأنهم خالدون، و أن لهم حصونهم المنيعة وقلاعهم المشيدة سوف تدافع عنهم و تقيهم من الأعداء المغيرين و مهالك الموت وغوائله، فهكذا كان الصوفية المسلمون يعظون الطغاة من الملوك و يـــنذرون الجـــبابرة من الأباطرة سوء العاقبة لمن يظلم الناس منهم، ومن غضب الله و عقابه لمن ادعي العظمة والكبرياء ، وتانك الصفتان قد استأثر بهما الله و خصهما لنفسه كما نص عليه الحديث القدسي:

" يقول الله عزوجل: العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته ولا أبالي!"

وللشيخ فريد بيت بسيط ولكنه حافل بالكنايات حيث يقول:

فريدا روتي ميرى كاته دى لاهوى ميرى بهكه

جنهان كهاديان جوبريان كهني سه نكى دكه!

و معناه:"إن خـــبزي الذي أعيش عليه يا فريد! هو من الأخشاب أي من ثمرات الأشجار وقشورها فهو طعام يغنيني من الجوع، وأما الذين يـــأكلون الأطعمة السمنية الدسمة، سوف يحزنون ويكابدون الألم ويندمون في النهاية".

فهذا البيت الشعري للشيخ فريد الدين مسعود يحكى لنا قصة كما أنه يحفل بالمحاسن الأدبية والروائع الفنية في الوقت نفسه، فأما القصة فهي أن الشيخ، رحمه الله، عندما نزل بظاهر القرية" أجودهن" لم يرد أن يكون عبئا على أحد أو يشحذ الأخباز على الطريقة التي يختارها الصوفية الفقراء وإنمـــا قرر أن يعيش على ثمرات شجر الكرير الذي كان متوفرا في المكان

كمـــا أن الشيخ كان قد نزل تحت أكبر شجر من بينها واتخذه منـــزلا له وأخـــذ يعيش على ثمره وقشره وورقه وخشبه! وقد صرح به المترجمون له وقد استمرت حياته على ذلك المنوال مدة حتى تمكن من بناء الأكواخ له ولأهلـــه! وحـــتى بدأت" الفتوحات" تأتيه من كل ناحية وصوب، وأما المحاســـن الأدبية والروائع الفنية فقد كني الشاعر في بيته هذا بالخبز الخشبي عـــن ثمرات الأشجار وقشورها وأوراقها التي عاش عليها مدة من الزمان والـــتي يعـــيش علـــيها الزهاد والنساك الهائمون المتجولون في البوادى و الصحارى دائما يبحثون عن بغيتم و يتجنبون الناس ويبتعدون عنهم! و لم يعرف عن الشيخ أنه اتبع هؤلاء المغامرين، ولكنه قد عاش على ثمر الشجر الـــذي جلس تحته و اتخذه منـــزلا كما استفاد و تمتع من ثمرات غيره من الأشجار الأخرى التي كانت حوله في الأجمة.

ومن نوادر التشبيه عند الشيخ قوله الذي يشبه فيه الصوفي الصابر الحليم بالشجر المثمر الذي يتحمل ضربات الحجارة والعصي من قبل من يجني ثماره ولكنه لايمنعه من ثمره بل هو يؤتي لهم ثماره و ينفعهم دون منع أو انقطاع ، يقول:

فريدا صاحب دي كر جا كرى دل جى لاه بمراند

درويشان نون لـــوريي ركهان دي جيرانـــــــد

ومعناه: "كن يافريد! عبدالربك وحده ولا تعبد سواه أحدا! وبه تستطيع أن تعـــزى قلـــبك و تطمئـــنه! و تذكّر دائما ولا تنس أبدا إن الدراويـــش المتصـــوفين في حاجة إلى صبر وحلم قد امتازت به

الأشجار المثمرة التي يأتي جناة ثمارها فيكيلون لها ضربات الحجر و العصا ولكنها لا تمنعهم ثمارها و تتحمل أذاهم دون شكوى!".

وللصـــوفية طرق يتعزون بها و يلقنون الناس العزاء على أساسها، فمن ذلك أن الذي يشترك فيه جميع البشر هو الحزن والألم ، لن تجد إنسانا لا يحـــزن ولا يجد الألم والمحن فذلك هو القاسم المشترك بين الناس جميعا، وفـــيه يقول الشيخ ، رحمه الله: ما معناه: " قد ظننت أنا يا فريد: كأنني حزين وحدى ولكن ظني كان كاذبا!

فالحزن قاسم مشترك بين البشر ويعم العالم كله! فقد صعدت إلى مكان مرتفع فألقيت نظرة من على المكان المرتفع فرأيت أن نار الحزن قد شملت بيوت العالم كله وتحرق كل بيت!"

وفي هذا المعني يقول شاعر عربي، ولله دره:

كل من ألقاه يشكو للزمـــن ليت شعرى هذه الدنيا لمن!؟

ومن روائع الفكر وبدائع القول عند الشيخ فريد الدين مسعود، رحمه الله، قوله في حب الزهاد لله ومشكلتهم في الوصول إلى حضرته جل جلاله:

فريـــــدا كليين جكر، دور كهر، نال بياري نينه

جي جلان تي بهجي كمبلي، جي رهان تي تيتي نينه

ومعـــناه:"يا فريد! الأزقة كلها وحلة ملساء، والمنـــزل بعيد جدا، وصلة الحب بالحبيب تجرني إليه، ولكنني إذا مشيت ابتل دثاري واتسخ، وإذا لم أتقدم نحوالحبيب انقطعت صلة الحب به!!"

ونكـــتفي بهـــذا القدر من الروائع الفنية للشيخ فريد فهي كثيرة متنوعة ونترك المجال للقارئ العربي الذي أردنا أن نمتعه بهذه الترجمة العربية ونضـــيف بها شيئا، ولو كان ضئيلا حقيرا، إلى إثراء اللغة العربية، فجملة القـــول إن الشيخ فريد الدين مسعود، رحمه الله، قد كان عالما متدينا قد أتقن العربية وعلومها ثم كرس حياته كلها للدعوة إلى الله وإصلاح النفوس وبناء المجتمع وأنه كان شاعرا متصوفا ومؤمنا موحدا لايري في الكون قوة غير الله الحق الذي جبلت القلوب على حبه وسكنت إلى رحمته واطمأنت بذكـــره ووجدت الراحة في السبيل إليه - مهما كان صعبا وعراشائكا!- وحنت إلى حضرته شوقا وفرحا وسرورا ! وكان ذلك مما جعل الشيخ لا يحفل بالدنيا وأهلها وزخارفها وكان يكرهها أشد الكره فلم يلتفت إلىما فـــيها أو إلى ما في أيدي أهلها، ورأي أن ذلك كله إنما هو متاع الغرور، فاعـــتزم عـــلى أن يفر منها فرار الخائف من نار الحريق أو العائذ بالله من الغريق! رحمه الله رحمة واسعة وجعل الجنة مثواه.

لاهور في 2003/7م

أ.د. ظهور أحمد أظهر

تعريب الأبيات الشعرية

(1)

- يـــوم تمت خطبة العروس ففي نفس اليوم تم تحديد عقد قرانها!، فإذا بملـــك المـــوت الذي كنا نسمع به ، قد طلع وكأنه يقدم العروس للعريس كهدية الزواج (يقول إن الحياة قصيرة والموت حق وليس بين المولد والموت مهلة إلا كما يكون بين الخطبة ثم عقدة النكاح وتقديم العروس للعريس كهدية!)
- إن ملـــك الموت سوف يأتي فينـــزع الروح البائسة من البدن حتى و كأنـــه يمزق العظام ، فالأنفاس معدودة مكتوبة ، ولا تطول ، ولكن مـــن الـــذي ينصح الروح البائسة ويقنعها؟! (لحظة النـــزع صعبة رهيبة، وهى آتية البتة ، وعلى الإنسان أن يتعظ بذلك!)
- فالروح عروس والموت عريس يتزوج العروس ، فيذهب بها ويودعها الأقـــارب أنفسهم وهم يتباكون متعانقين بعضهم البعض (مشهد من المشاهد عند توديع الميت).
- إن الصـــراط إلى الخلود أدق من الشعرة وسرعة العبور عليه ستكون أسرع من الصوت! فهل تسمع يافريد بالهاتف الداعي الذي يناديك قائلا : لا تقف غافلا حائرا مندهشا! (لا تضيع العمر و استعد لعبور الصراط إلى الجنة بالعمل الصالح!).

(2)

- (يـــتحدث عن طريق الفقر الصوفي الوعر الصعب ويرى أن طـــريق أهـــل الدنيا أسهل منه بكثير، فيقول): إن باب الفقر صـــعب عصـــيب، وأريد أن أختار طريق أهل الدنيا حيث يســـتطيع المسافر أن يشد رزمته ويحملها معه ثم يضعها حيث يشاء دون حظر أو تردد!

(3)

- إن الدنيا، بزخرفتها اللامعة وأغطيتها الكثيفة،نار حامية، ولا يمكن لي أن أدرك حقيقتها و أميزبين خيرها وشرها ولكن الله جل جلاله كان بي رحيما وإلا فقد كنت على وشك السقوط فيها، والاحتراق بحرها اللاذع !

(4)

- (هـــنا يتحدث الشيخ عن أيام الحياة الدنيا القليلة التي تنقضي بســـرعة ويشبهها بحبوب سمسمية، ويتحدث عن ربه الصمد الغني الذي يبتلى عباده دون أن يبالي بهم في بلائهم فيقول):لو كنت أعرف أن الحبوب السمسمية قليلة العدد لملأت بها كفى جـــيدا، ولو كنت على علم بأن ربي غني صمد لا يبالي بمن يبتلـــيه مـــن عباده لما افتخرت به كثيرا، ولكنني كنت خائفا مترقبا فيما أعمل و لم أتدلل معه أبدا !

(5)

- لو عرفت أن الحبل مرخي مهلهل لشددت العقدة، وقد سرت في أرضك الرحبة كلها يارب! فلم أجد أحدا يباريك في الكبرياء وينازعك في العظمة! (يفقد العبد صلته بربه إذا كانت ضعيفة واهية، فهو سبحانه وتعالى ليس كمثله شئ في العظمة والكبرياء!)

(6)

- (يريد الشيخ فريد الدين مسعود أن ينصح لنا مخاطبا نفسه فيقول): إذا كنت، أنت يا فريد، ذا عقل لطيف سليم فعليك أن تجتنب الذنوب والآثام، وعليك بالتواضع وخشية الله، وذلك بمعرفتك نفسك وباستشارتك قلبك وضميرك!

(7)

- (من نصائح الشيخ ومواعظه لأتباعه أنه يأمرهم بالعفو والصفح والصبر والحلم، عاملا بقوله سبحانه وتعالى: ولمن صبر و غفر فإن ذلك لمن عزم الأمور، وقوله تعالى: فاعفوا واصفحوا، فيقول): إن لطموك يا فريد! فلا تلطمهم وعليك أن تعود إلى منزلك أي أعرض عنهم إعراضا وتنح إلى ناحية فسوف ترى الناس قد تراجعوا عن الإساءة إليك!

(8)

- (الإنســـان الغافل يضيع الفرص المتاحة ثم يندم على ذلك في الـــنهاية! وعن ذلك يقول الشيخ فريد:)عند ما كانت فرص العمل متاحة شاركت الناس في اللهو واللعب يا فريد! وحين اقترب وقت الرحيل بدأت الرجوع إلى الله وأردت أن ترضيه وتتقرب إليه! فيا للخسارة والفضيحة!

(9)

- (الشيخ ينبه الغافل الذي يضيع العمر فلا يحفل بما يحتاج إليه في عقباه فيقول): أنظر إلى ما قضيته من عمرك يا فريد!فقد ابيض شعرك وأنت على وشك الرحيل! فقدم لغدك وما تحتاج إليه في عقباك، أفلا تري ان الذي قضيته من العمر قد ابتعد عنك ابتعادا و اقتربت ساعتك اقترابا!؟

(10)

- (الشـــيخوخة تتبع الشباب فيتحول سم العواطف الجياشة إلى سكر الهدوء، ولكن من لآلام الوهن والضعف!؟ يقول الشيخ فـــريد الدين مسعود في بيته الشعري البنجابي هذا): انظر يا فريد! فقد انقضى شبابك فتحول من العاطفة الثوريّة إلى سكر السكينة والهدوء ، و لكن ليس من تشكو إليه وتستعين به في آلام الشيخوخة وضعفها و وهنها، غير ربك الرحيم الكريم!